التوجيه والارشاد النفس - اجتماعي في المدارس اللبنانية

رجاء مكي طبارة

- تنطلق مشكلية هذا البحث في عدم ايلاء المدارس عامة في لبنان لمثل هذا النوع من الارشاد او استبداله لدى البعض الآخر بدوائر وليدة الساعة وابنة الحاجة الحالية دون اي تخطيط او سعي حثيث للديمومة وللاستمرارية. وبذلك يكون هذا البحث جزءاً من مشكلة تربوية ونفسية آنية لوطن ما بعد الحرب. هي مشكلة تطرح على بساط البحث مدى تقبّل الناس للعالم النفسي او للمحلل النفسي في بلادنا ومدى ضرورته كصديق مستمع ومساعد لحل بعض الوضعيات الصعبة او المعقدة.

ان الفئة الكبرى من ناسنا لا تزال تجهل اغراض العلوم النفسية ودورها في الحياة العامة وفي الحياة المدرسية على الأخص ؛ ذلك ان الكثير ينفر او يرتبك لدى سماعه كلمة محلل او معالج او اخصائي نفساني لأن اسم هذا الاخير يقترن بالشذوذ وبالانحراف.

١ - واقع ووضعيات الارشاد النفس - اجتماعي في لبنان

١-١ على الصعيد الرسمي الحكومي.

حصر رئيس الديوان المسؤول عن المدارس الخاصة والرسمية في وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة وفي مقابلة اجريت معه[١] (وهو بمثابة رئيس للجهاز الاداري في الوزارة) واقع الارشاد في لبنان بمشكلتين اثنتين :

أ – واقع الحرب الاهلية اللبنانية الذي منع تنفيذ اي مرسوم دعت الحاجة لاصداره[٢]. فالوزارة ومنذ العام ١٩٧٠ تكتشف الحاجة لأخصائي اجتماعي لكن الحرب فرضت معالجة الافضليات (كفاءة الاستاذ – اتمام النقص المدرسي الخ...).

ب – استقلالية المدرسة الخاصة في لبنان وعدم خضوعها للمراقبة باستثناء تطبيق المناهج الرسمية والخضوع للامتحانات الرسمية.

لقد وعت اليوم وزارة التربية دورها الطليعي في هذا الميدان، خاصة تعزيز الدور النفساني في المدارس بغية تخريج افواج من الطلاب والتلامذة، وأصدر مرسوم في بدايات العام ١٩٩٠ بتشكيل « مديرية الارشاد والتوجيه » في الوزارة (L'orientation pédago-gique et sociale) وهي مديرية في طور التشكيل والاعداد تهدف الى العملية التربوية ككل (استاذ/تلميذ/أسرة) ولم تتبلور حتى الآن بنيتها، وهي بصدد استعارة اساتذة من ملاكات اخرى وتصنيفهم كمرشدين تربويين.

١-٢ على الصعيد الخاص :

في المقابلات الميدانية التي أجريت مع الكثير من المدارس الخاصة، تم التركيز على وضعية الحرب التي منعت المدارس من تنظيم هيكليتها بشكل تفصيلي والتي كانت سبباً مباشراً في ايجاد سلوك منحرف او غير سوي او معقد لدى التلامذة.

فكانت الحلول الآنية وقتذاك، كالاستعانة بموجه غير اخصائي يمكن ان يكون دوام عمله كاملاً في المدرسة وبصيغة استاذ أو منسق أو ناظر الخ... (ونتساءل عن صحة العلاج والحلول المتبعة ؟)

هذه الحلول لم تتغير كثيراً حالياً، ربما أخذت منحى آخر لكن دائماً غير جذري، كالاستعانة بأخصائي (ربما تتعاقد المدرسة صورياً معه) خارج المدرسة وهو أمر مكلف لا يمكن ان يتحمله كافة أولياء التلامذة.

أو ربما تواجد الاخصائي النفسي، لكن تواجده يبقى في اطار المحاولة غير الجدية التي لا تمسّ الحالة بتفاصيلها ولا تتابعها بمشاريع وبأهداف تصل الى حد الشفاء.

لقد أجمع الكل على ان مرحلة ما بعد الحرب يجب ان تركز على تواجد الاخصائي، مما يزيح الكثير عن كاهل المدرسات ومما يساعد في اكتشاف الحالة المعقدة قبل ان يستفحل الامر.

ويمكن تصنيف المدارس اللبنانية كالتالي :

أ – المدارس التي لا يتواجد فيها أخصائي ويحل محلّه التربوي – الاكاديمي – وهذه أغلب حالات العينة المستجوبة (وهي مدارس فئة أولى في لبنان).

ب – المدارس التي يتواجد فيها الاخصائي لكن لا يتعدى دوره الابهة والمظهر للترويج للمدرسة (وهي مدارس مصنفة في الوسط وتقوم على أشخاص وليس على مؤسسات).

ج – مدارس لا تطرح فكرة الاخصائي ولا البديل عنه وما تزال فكرة المعالجة لهذا الموضوع معالجة غير جدية وعميقة (المدارس الرسمية).

٢ – ما هو التوجيه النفس – اجتماعي :

ان الخلط جارٍ في استخدام المصطلحات في هذا المجال، فالخلط حاصل ما بين الارشاد والتوجيه من جهة والتدريب من جهة أخرى، كما هو خلط ايضاً بين التربوي والاجتماعي والنفسي.

ان للتوجيه وللارشاد لغوياً معنى الادراك والهدى (ارشد إرشاداً اي أرشد الغلام الى كذا ... وجه توجيهاً، أي وجهّه اليه وجعله يتجه اتجاهاً واحداً)، أما التدريب ففيه صفة التعلّم والتمرين.

كما ان التربوي والنفساني هما صفتان او مستويان في المستوى الاجتماعي الكلي، لكن للنفساني صفة الفرد الذي لا بد ان يكون في اطار جماعة ما فلا بد من ان يكون هذا التوجيه والارشاد توجيهاً وارشاداً نفس – اجتماعيين (تهيئة الفرد نفسياً، لذاته، وتهيئة للوظيفة الاجتماعية)، ودائما في اطار عملية تربوية هادفة وشاملة لا تقتصر على المنهج والكتاب[٣].

ونميز من جهة أخرى في اللغة الفرنسية ما بين التوجيه التربوي وما بين التوجيه المهني وما بين التوجيه الزوجي وما بين التوجيه النفسي المدرسي...

ومهما يكن فإن الطفولة هي المرحلة الاهم في حياة الانسان،

ويمكن ان تعترضه خلالها مشاكل منزلية - أسرية ومشاكل مدرسية.

من المشكلات الطفولية المنزلية : الخوف - التبوّل اللاإرادي - مص الاصابع وقضم الاظافر - النوم - مشكلة الاكل وفقدان الشهية - الغيرة - العصاب - الاتكالية - الفشل - العصبية الخ... - العدوانية - التمرد.

من المشكلات الطفولية المدرسية : التأخر الدراسي - صعوبة النطق - الكذب - السرقة - التخريب - العناد والتمرد الخ...

هذا ما يطرح مشكلة الصحة النفسية للاطفال ويطرح معها نسبية هذه المسألة، هي دلالة على قدرة الفرد على التكيف مع نفسه ومع البيئة التي يعيشها وكله مرتبط بتكوينه النفسي. فالإنسان معرض في كل مرحلة من مراحل نمو حياته، لمواجهة المشاكل التي يجب مواجهتها وحلها كي يتمكن من حل مشاكله اللاحقة.

وعليه فانه - أي الارشاد - مجموع الخدمات التي تهدف الى مساعدة الفرد على ان يفهم نفسه ومشاكله وأن يستغل امكاناته الذاتية والبيئية فيحدد أهدافاً تتفق مع هذه الامكانيات (القدرات - الميول - الاستعدادات - المحيط الاجتماعي الخ)... الهدف هنا هو حل المشاكل حلولاً عملية بحيث تؤدي الى تكيف الفرد مع نفسه ومع مجتمعه « فيبلغ أقصى ما يمكن أن يبلغه من النمو والتكامل في شخصيته... »[٤و٥].

يقوم التوجيه النفس - اجتماعي في المدارس اذاً، على مساعدة التلاميذ وتوجيههم بهدف الوصول الى توافق في سلوكهم وتمكينهم من فهم أنفسهم ومجتمعهم بهدف التكيف مع هذا المجتمع لبلوغ الاهداف المرجوة. انه عملية متممة للمناهج المدرسية تؤدي الى ازدهار عملية التعليم وتحقيق أهداف المدرسة وتكوين اسرة صالحة[٦].

٣ - تاريخية ظهور التوجيه والارشاد :

عندما اندلعت الازمة الاقتصادية (في ت ١٩٢٩/١) حدث تغيير شامل في مجتمع الرعاية الاجتماعية في اميركا، خاصة بالنسبة

لمساعدات الفقراء، ولم يتوفر الاخصائيون الاجتماعيون العاملون في مؤسسات المساعدة العامة. فتبين للقائمين على جمعيات تنظيم الاحسان والخير ان المساعدات الحكومية للفقراء[٧] لا يمكن ان تعتبر علاجاً للاوضاع الاجتماعية السيئة ويجب تحويل الجهود لتقويم سلوك الفرد المنحرف الذي انحدر الى « رذيلة الفقر ». بدأوا بعمل تطوعي يلجأون فيه للزيارات المنزلية وللمقابلات الشخصية، مما أثر على تقدم في تفسير اثر البيئة الاجتماعية وانعكاساتها على الفرد. وقدموا اعمالهم للجان ممثلة لمنظمة الرعاية التي فشلت في عملها باعتباره اعتمد فقط على المساعدت الخاصة غير الحكومية...

الا انه، وبعد توقيع الرئيس « هوفر » قانون الاغاثة سنة ١٩٣٢[٨] بدأ يتطور مفهوم خدمة الفرد نتيجة الدراسات الميدانية في الانتروبولوجيا وعلم السلوك والجماعة، على ان تشمل الجهود كافة اعضاء الأسرة. الا ان الاتجاه الابوي ساد العلاقة التي جمعت بين الاخصائي والعميل.

في سنة ١٩١٧، بدأ الاتجاه نحو التشخيص الاجتماعي والتركيز على العوامل الاجتماعية والاقتصادية والاسرية، كما كان لتقدم علم النفس في دراساته حول نمو الطفل واكتشاف اختبارات الذكاء (S. Hall Binet et Simon - Bodard) وانتشار مفاهيم التحليل النفسي وتطور النظريات لدينامية الجماعة والتفاعل معها الخ...، كله أثّر على الاخصائي الاجتماعي الذي بدأ بدراسة التاريخ الاجتماعي لحياة المريض وظروفه الاسرية. ووجدت التبريرات لسلوك العميل في ضوء العمليات الدفاعية كالتبرير والاسقاط والتعويض والنكوص والتحويل والتوحد وغيرها... فأصبحت خدمة الفرد تهتم بتنمية قدراته وبالتسليم بقدرته كانسان وبتقبله كما هو، مستخدمين نظريات متعددة. ويطبق جوانب مختلفة من مدارس علم النفس في عمله، ويُعمل حالياً على تركيب سيكولوجي يوفق بينها مما يساهم في تطوير مبادئ الخدمة الاجتماعية.

في هذا الوقت تطورت فكرة المدرسة التي أصبحت للجميع وليس لفئة من الناس وكان لا بد لها من التنسيق مع المنزل حيث مجال التنشئة الاول للاطفال ؛ اذ تبدأ منذ اللحظة الاولى تأثيرات المنزل بسلبياتها وايجابياتها على الطفل، مما يجعل المدرسة تحصد ثمار هذه التربية (التي لا بد لها ان تبدأ بالمنزل). وللمدرسة دور

يأتي ليكمل دور المنزل فهي التي تزود النشء بالمهارات فعلى عاتقها تقع مسؤولية تحصين الاجيال.

٦ – صفات الموجه النفس – اجتماعي

ينظر الى الموجه او الاخصائي النفس – اجتماعي على انه من أهم أقطاب المدرسة الحديثة، فهو المنسق والمحرّك لجميع الفعاليات التربوية داخل مؤسسة المدرسة وخارجها. لذلك يُشترط توافر عدد من الميزات في شخصيته، هو تماماً كالمحلل الذي يجب ان يتجاوز الكثير من المواقف ويُختبر في هذا التجاوز كي يحصل على شهادته المهنية نهائياً.

عليه ان يتسم باللين وبالهدوء (هدوء الاعصاب) وحسن الاصغاء والاستماع، فعليه مثلاً في النقطة الاخيرة ان يتابع محدثه ويهتم بما يقوله دون ان يقاطعه، وان يترك له حرية التعبير عن افكاره ومشاكله، وتفهمه وتشجيعه، مما يسمح للتلاميذ بالاعتراف له بمشاكلهم مما يدعم الثقة به، كما عليه ان يعرف كيف يستخرج لاوعي التلامذة، كل ذلك مع الحفاظ على أسرار الجلسات الخاصة[٩] وعدم جعلها موضوعاً متداولاً...

يجب ان يكون حيادياً مع معرفة في كيفية الاجابة على الاسئلة عبر سرعة بديهة. كما يجب عدم اللوم كي يخفف عندهم الشعور بالذنب، والابتعاد عن الوعظ والارشاد.

كما عليه ان يتصف بصفات مهنية كالالمام بوضعية المدرسة وبطرائق التدريس وبالبرامج، وبالكتاب المدرسي. عليه الا يحصر عمله داخل المدرسة بل خارجها لتوعية الاهل وتثقيفهم، وايجاد لقاءات متبادلة معهم ومعرفة كيفية تركيبة أسرهم[١٠] وأوضاعها من « أجل تنسيق واسع ربما يشمل السياسة التربوية والاجتماعية لبناء مجتمع مدني سليم »[١١و١٢].

ونذكر ان تنمية الملاحظة بهذا الخصوص أمر مهم جداً لأنها أساس لجمع المعطيات ولمعالجتها لاحقاً، كما ان الاطلاع على العلوم الاحصائية والمعلوماتية ضروري[١٣]. ويحسن به اللجوء الى التجارب، كإجراء الاختبارات والقياسات والروائز والاستمارات[١٤] والمقابلات، مع التذكير بأهمية اختيار الوقت المناسب.

ويمكن الا يتوفر في المدرسة المستلزمات العلاجية تبعاً للحالة، فيمكن عند ذاك الاستعانة بأخصائي آخر في عيادته، وهي خطوة يجب التريث لها والتروي قبل الاقدام واطلاع الاهل عليها.

نحن في مسيرة السلم والاعمار نتوجه فقط للاهتمام بالتخلف ونهمل التفوق مثلاً والابداع، كما نهمل الارشاد ونهمل معه الصحة النفسية باهمالنا مواجهة، او على الاقل معرفة، ما يواجهه اطفالنا في مدارسهم[١٥]، وعليه فان غياب الموجه النفس - اجتماعي (حامي الصحة النفسية وموعي الاهل) هي مشكلة قديمة ولم تكن فقط وليدة الظروف الحالية.

٧ - اقتراحات :

سنصنّف اقتراحاتنا ضمن ثلاثة محاور :

مهنية تخص تنظيم المهنة والاختصاص - مدرسية تخص مؤسسة المدرسة وتهيئتها لاستيعاب هذه المهنة - أسرية تخص مؤسسة الأسرة ودور الاهل في تقبّل المهنة.

أ - اقتراحات مهنية :

اذ نتساءل كيف يجب ان نعد الموجِّه ؟ نجيب ان للجامعات دوراً كبيراً يمكن ان تلعبه في اعداده وتدريبه لمثل هذا الاختصاص. ونركز هنا على كليات واقسام علم النفس ودورها في سوق العمل... وذلك باعداد برامج خاصة يمكن ان تساعده في الوقوف على ميول واستعدادات التلاميذ (دراسة المتفوقين ووضعياتهم..). إعداد دورات تدريبية عملية لتدريب علماء النفس الاجتماعي. كما ان للجمعيات الاهلية دوراً يمكن ان تلعبه في التدريب والاعداد وبتقديم حلول جانبية للاسرة - للمدرسة. وللاختصاصيين وللمدارس الاصلاحية العمل على شطب ذلك التصور الخاطئ للعلاج النفسي في اذهان الناس والاهل، ويجدر تعزيز وسائل الارشاد (ابحاث نظرية - اهتمام بمراحل الطفل ومتابعة الاستمرارية في العلم دون الانقطاع، مراقبة الحدث وتطوره، تعزيز وضعه الوظيفي واستقلاليته، احترام اسئلة الطفل وعدم اهمالها والاجابة عليها اجابة صحيحة).

ب – اقتراحات مدرسية :

للاستمرارية في العمل دون انقطاع ولمراقبة الحدث وتطوره، يجب السعي الى ادخال الفكرة الى المدارس، وربما تلت لاحقاً ادخال العيادات التربوية النفسانية لمعالجة اوضاع الطلاب والتلاميذ : المتأخرين في دروسهم او العدوانيين او المنحرفين. وعليه فان الحاجة مطلقة لايجاد جهاز تربوي يتواجد في المدرسة على رأسه عالم النفس، بدونه لا يمكن متابعة العلاجات والحالات ومراقبة النتائج. ولوزارة التربية دور تشريعي هام في هذه المسألة، كما للمدرسة الخاصة. عندما تعمم هذه المسألة وتعتمدها، عليها ايجاد صلة بين الاخصائي والمدرس، مدرس الصف، وهي علاقة لا تقل أهمية عن العلاقة مع الاهل، وتنظيم الاجتماعات الدورية معهم وبحضور النظار، والسماح له بالاشتراك بكافة الاجهزة الادارية والتعليمية (نظام قبول التلاميذ – الكتابة – التنسيق – توزيع التلاميذ على الشُعَب – القيام بعمليات مسح سيكولوجي عام وخاص كي تتحدد امامه المشكلات)، والمساعدة على نشر ما توصل اليه من استنتاجات في كتب او نشرات تهتم بهذا المجال او ضمها لنشرة المدرسة كي يطلع عليها الاهل والمدرسون والتلامذة انفسهم مما يساعدهم على فهم واقع : لكل مشكلة حل ...

ج – اقتراحات أسرية :

تخص الاهل ومساعدتهم على تقبل الفكرة واقامة ندوات نوعية لهم وعرض الافلام التي تعالج موضوعات تربوية تجري احداثها في المدارس (يجب ان يليها نقاش).

ان الغاية هنا، هي تزويد مجتمعنا بخدمات الرعاية النفسية المدرسية حيث تبرز الحاجة لتواجد خبير – مرشد لا يكون مصدراً للتباهي وللتفاخر، بل يقوم بدور الوسيط الفعلي بين المدرسة والاهـــل[١٦] لتحقيق صحة نفسية سوية للتلاميذ. وهذا ما يعود بالمنفعة ليس فقط على مؤسسة الاسرة بل على مؤسسة المدرسة أيضاً. ولوزارة التربية دور التخطيط لمثل هذا المركز وتحديد اهدافه والسهر على تنفيذ هذا الامر في المدارس الرسمية والخاصة على السواء.

فهل الواقع هو واقع مأساوي ؟ أم هو واقع كمالي ؟ أم انه أمر وطني واجتماعي وانساني لفرد او لطفل ما بعد الحرب ؟؟

١- اغادير النونو، *التوجيه النفس - اجتماعي في بعض المدارس الثانوية في بيروت* (دراسة اعدّت لنيل شهادة الجدارة) معهد العلوم الاجتماعية (١)، الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٨٩-١٩٩٠.
٢ - كالمرسوم الذي صدر عام ١٩٧٣ والذي يحدد وظيفة الموجّه او الاخصائي النفس - اجتماعي.
٣ - بغياب سياسة هادفة، الكل يصب في نفس الاتجاه رغم الاختلافات الجزئية. لدى تواجد مزيد من التخصص تتضح اكثر المشاكل وكيفية معالجتها بشكل صحيح.
٤ - احمد لطفي، *التوجيه التربوي والارشاد النفسي*، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٨، ص ٣.
٥ - يقول Trade عن ضرورة وقوف علم الارشاد الاجتماعي على القوانين السيكولوجية الاجتماعية، ووظيفة الارشاد هو انشاء نماذج جديدة في القول والعمل والاقتداء والتفكير. هنا تكمن اهمية الموجه النفس - اجتماعي لانه سيصبح مرشد الابداع والتسامي.
٦ - أحمد الخشاب، *الارشاد الاجتماعي، الاسس النظرية والتطبيقات العملية*، القاهرة، مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٧٧.
٧ - كان يعتبر الفقر آنذاك مرادفاً للرذيلة وللكسل على حسب قول د. شحيمي في كتابه : *دور علم النفس في الحياة المدرسية*، بيروت، دار الفكر اللبناني، ١٩٩٤، ص ١٩١.
٨ - المصدر نفسه، ص ١٩٦.
٩ - انها وضعية التحليل النفسي والتداعيات الحرة للمريض، فالاستماع هادف وموضوعي يراد به الذهاب الى ما وراء الكلمات. عليه دراسة الحالة النفسية للتلميذ.
١٠-١١ - د. علي شحيمي، المصدر نفسه، ص ٣٠٠.
١٢ - هي علوم تحمل بأرقامها دلالات مجتمعية مهمة تفيد المرشد او الموجه في عمليات التشخيص والمعالجة.
١٣ - مع التلامذة - الاهل - النظار - المدراء - المفتشين الخ.
١٤ - عادة ما يوزع العلاج كالتالي : ٧٠٪ للتفريغ النفسي، ٢٠٪ للاستفسار، ١٠٪ للنصيحة والارشاد، تبعاً لما جاء في كتاب د. شحيمي، *المصدر السابق*، ص ٢٨٩.
١٥ - كظاهرة النيرڤانا حالياً.
١٦ - ايجاد مكتب رعاية نفسية او دائرة نفسية اجتماعية كما هو الحال في مصر وبلدان الخليج وتأكيد وضعية الخبير أو الموجه تماماً كما تتأكد وضعية المرشد الصحي.
١٧ - **المراجع :**

- د. محمود حسن، *الخدمات الاجتماعية المقارنة*، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٢.
- د. محمد أيوب الشحيمي، *مشاكل الاطفال، كيف نفهمها*، بيروت، دار الفكر اللبناني، ١٩٩٤.